الآيديولوجية في خطاب المناظرة
(موازنة الآمدي اختياراً)

الباحث : علي كاظم صالح

أ.م.د. ماجد عبد الحميد الكعبي

جامعة البصرة – كلية الآداب– قسم اللغة العربية

خلاصة البحث:

يشتغل البحث على تحليل حجج المناظرة ، بهدف اكتشاف الفرضيات المتحكمة في الذاكرة الخطابية١، إذ ان الحجج تكشف عن الطرائق السائدة في التفكير، وتؤشر كذلك إلى الآيديولوجيات المسيطرة في المجتمعات، فالحجاج يُعدّ تمثيلاً آيديولوجياً للمجتمع من جهة، ومنتجاً للآيديولوجيات من جهة أُخرى. كل ذلك من خلال تشخيص المواضع والقيم ودورهما في تشكّل الخطاب. فالحجاج (بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري) كان تمثيلاً خطابياً لاتجاهين فكريين متناقضين في المجتمع لكل منهما معاييره الخاصة وقيمه الثقافية ، فكان الصراع بينهما صراعاً بين ثقافتين، ثقافة صاحب البحتري النقلية التي مثّلت الموروث العربي، ، وثقافة صاحب ابي تمام العقلية والفلسفية الوافدة التي مثّلت الحداثة.

الكلمات المفتاحية: الآيديولوجية ، الخطاب ، المناظرة ، الموازنة ، الآمدي.

Ideology in Argumentative Discourse
(Al Amidy Comparison as a sample)

Researcher: Ali Kadhim Salih
Assist. Prof. Dr. Majid Abdul Hameed AlKa'abi
Dept. of Arabic language , College of Arts ,University of Basra

Abstract:

This research paper analyzes arguments of the argumentative discourse to discover the hypotheses controlling the discourse memory. These arguments unfold the common ways of thinking and refer to the prominent ideologies in societies. Argumentation represents the ideology of the society in one hand and a productive way of ideologies on the other. This is done through diagnosing the placements and values and their role in forming discourse. So, arguments between Al Buhtiri followers and Al Abi Tammam followers represented discourse of two contradicted trends, each has its own standards and cultural values. The conflict between them was between two cultures: Al Buhtiri followers' transportive culture which represented the Arabian inheritance and Al Buhtiri followers' intellectual and philosophical culture which represented modernity.

Key words: Ideology, discourse, argumentation, comparison, Al Amidy.

توطئة

الكتابة عن المواضع والقيم (سواء أكانت قيماً مجردة، من قبيل المساواة والجمال، أم محسوسة من قبيل الوطن) كتابة آيديولوجية، الايديولوجية هنا ((تمثّل معان/ تفسيرات للواقع (العالم المادي، والعلاقات الاجتماعية، والكيانات الاجتماعية) وأنها بهذا المعنى راسخة في أبنية شتى الاشكال / المعاني الخاصة بالممارسات الخطابية وأنها تسهم في انتاج علاقات السيطرة أو إعادة إنتاجها أو تحويلها))٢ هذا المعنى للآيديولوجية ربما ينبني – من وجهة نظر معينة – على افتراضات متسالم عليها، واعتقادات مشتركة بين الأفراد أو الجماعات، من هنا فالبحث لايتخذ منهجاً حجاجياً أو يخضع إلى مدرسة حجاجية معينة بقدر ما يبحث عن الآثار الآيديولوجية في العمق الحجاجي من وجهة نقدية ، وصفة النقدي ((تُستخدم هنا بالمعنى الخاص الذي يفيد السعي إلى تبيان الروابط التي تُخفى عن عيون الناس، مثل الروابط بين اللغة والسلطة والآيديولوجية ...))٣، مما تقدم تبين أن استدعاء القيم كما يعتقد (فيليب بروطون) هو استدعاء للحجة، وما تملكه من معايير كامنة وافتراضات اجتماعية مشتركة٤، والعكس صحيح أيضاً. فالقيم موجودة في عمق الحجاج وهي التي تمنحه نشاطاً تواصلياً ووزناً أكبر٥.

من سمات القيم أنها تقف بالضد من الكونية بمعنى أن صلتها مرتبطة بالتجمعات البشرية، فلكل جماعة قيمها الخاصة٦، ولها درجات متعددة ومختلفة، كما أن لها تصنيفاً هرمياً٧، ومايميز كل مجتمع هو سلّم الأوليّات التي تخضع لها القيم السائدة٨. لهذا تتصف غالباً بقابليتها للتغّير المستمر من زمان إلى آخر، ومن مكان إلى آخر٩، مع إمكانية تقويمها واختبارها تجريبياً من خلال أخذ عينات تأريخية من عدة وقائع وأحداث اجتماعية للوقوف على ثوابت المواضع والقيم ومتغيراتها (أحد نتائج ذلك إثبات أو نفي كونيتها). النتيجة الأُخرى التي يمكن إثباتها أو نفيها أيضاً، تتلخص بإمكانية التنبؤ بالمستقبل الثوري للمجتمعات إذا عملنا جيداً – ومن خلال الحجاج – على إدراك وتفسير الطبيعة المعرفية للواقع الاجتماعي، إذ ((يمكن القول إن النظرية

التي تفسّر تستطيع أن تتنبأ))١٠. اما المواضع و(تسمى أيضاً: المعاني)، فيصفها العلماء المختصون بأنها خزين من الحجج، يُؤخذ منه ما يشكّل جسراً بين السبب والنتيجة١١، ويؤكدون أيضاً على ارتباطها بالذاكرة، واقترانها بالأفكار المسبقة١٢، فهي التي ((تحدّد خصائص الامم والجماعات الفكرية والادبية وغير

من جانب آخر تُقسّم المواضع بحسب متعلقها، بعض المواضع متعلقة بالكم ((التي تثبت أن شيئا أفضل من شئ آخر لأسباب كمية))١٤، والتي ((...تؤكد أن ما تعم فائدته أكبر عدد من الناس، وأن ما هو أكثر دواماً ونفعاً في وضعيات متنوعة، أفضل مما لا يفيد سوى عدد قليل، وآثَرُ مما هو أكثر عرضة للزوال، أو لا يصلح إلا لوضعيات خاصة))١٥. بعض هذه الإثباتات متعلقة بمواضع الكيف ((وهي ضد الكم من حيث إنها نسيج وحدها فهي واحدة ضد جمع، وتستمد قيمتها من وحدانيتها تلك، مثل الحقيقة...هي واحدة في مقابل آراء البشر المختلفة، ومثل الحق الذي لا يمكن إلّا أن يعلو ولا يُعلى عليه مهما كان عدد خصومه وأعدائه كثيراً، وهكذا يتضح أن موضع الكيف واحد من أهم مدارات الحجاج))١٦، إذ تؤكد مواضع الكيف على ((سموَّ الامور الفريدة والنادرة والإستثنائية والعابرة والصعبة والأصيلة، أنها مواضع ترجّح النخبة بدل الجماهير، والإستثنائي بدل المعتاد))١٧. يبقى هنالك مواضع أُخرى أقل استعمالاً منها: ((موضع الرتبة أو الأولية من قبيل اعتبار أن ما سبق أفضل مما لحق، وأنه ليس بالإمكان أحسن مما كان...موضع الموجود الذي يقوم على تمجيد الواقع والمعيش الراهن، ويفضله على الطارئ الذي قد يكون غير محصّل))١٨. ومواضع الجوهر التي ((تعطي الأسبقية للأشخاص الأكثر تمثيلاً لجوهر النوع...))١٩. ومواضع الشخص التي ((تعطي الأولوية لما هو مرتبط بكرامة الإنسان واستقلاله))٢٠.

أهمية المواضع والقيم تكمن في وظيفتهما المرجعية، إذ تحيلان إلى فضاء مشترك من الآيديولوجيات، ولهما من هذه الجهة قدرة فعّالة على السيطرة والهيمنة، يسلّم المخاطَب بموجبها بما يرد في الخطاب٢١ من أفكار ومعتقدات وحجج بصورة طوعية، لهذا يمكن القول أن اختيار مقدمات الحجاج (القيم والمواضع خاصة) ينطوي بشكل ضمني على تحيّز سابق، يتضمن التزاماً آيديولوجياً مضمراً٢٢. فالإختيار بحد ذاته

وصف مخصوص وفق رؤية محددة، يسعى لتفسير العالم، وفهم طبيعة المتغيّرات التي تقع داخل/ خارج الخطاب. خلاصة القول إن تحليل الحجج والقيم والمواضع أنما هو تحليل آيديولوجي، يتم عبر النفاذ إلى المنظومة السسيوثقافية التي تهيمن على المجموعات الإنسانية في عصر معين، أو على تيار معيّن؛ الأمر الذي يؤدي بالنتيجة إلى ((تأريخ الفكر))٢٣، وتشخيص السمات الثقافية للمجتمعات٢٤. ومن الملاحظات المهمة هنا هي أن كل دراسة للقيم والمواضع من وجهة نظر آيديولوجية (في اطار حرية الحجاج، ووجود رؤيتين خلافيتين مفترضتين في كل فعل حجاجي) تبقى في نطاق الفرضية دون القانون، مما يسمح دائماً بتجاور سرديات كبرى، يمكن روايتها معاً، دون أن يشكّل ذلك خرقاً لتوازن الواقع الاجتماعي القائم، الذي قد يعطي ذريعة للجماعات المتطرّفة للاستمرار في الصراع والهيمنة.

أولاً: المواضع والقيم في حجاج صاحب أبي تمام

قبل ان يقوم البحث بتحليل (المواضع والقيم) في حجاج صاحب أبي تمام يُستحسن إلقاء نظرة على الجداول الخاصة بتصنيفهما في ضوء النصوص الحجاجية لصاحب أبي تمام وكما يلي:

الجدول (٠١): المواضع والقيم في حجاج صاحب أبي تمام

المواضع والقيم	الاقتباس
موضع الأوليّة	((كيف يجوز لقائل أن يقول: إن البحتري أشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ، وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقي؟ وتتلمذ له؛ حتى قيل: الطائي الأكبر،والطائي الأصغر)). ١/ ٦
موضع الكيف (التفرد) موضع الأوليّة موضع الكم (العدد)	((أبو تمام انفرد بمذهب اخترعه)). ١/ ١٣ ((وصار فيه أولا وإمامة متبوعة)). ١/ ١٣ ((وسلك الناس نهجه، واقتفوا أثره)). ١/ ١٣

موضع الكيف (النخبة)	((قال صاحب أبي تمام: فقد عرفناكم أن أبا تمام أتى في شعره بمعان فلسفية، وألفاظ عربية، فإذا سمع بعض شعره الأعرابي لم يفهمه، وإذا فسِّر له فهمه واستحسنه)) ١/ ٢٧
موضع الكم (العدد)	((فما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام سليم من الطعن، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب)). ١/ ٣٧
موضع الكيف (التفرد)	((قال صاحب أبي تمام: فقد علمتم وسمعتم الرواة وكثيرا من العلماء بالشعر يقولون: جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله، وإذا كان كل جيد دون جيده لم يضره ما يؤثر من رديئه)) ١/ ٥٤
موضع الكم (العدد) موضع الأوليّة	((أفتنكرون كثرة ما أخذه البحتري من أبي تمام، وإغراقه في الاستعارة من معانيه ؟...)) ١/ ٥٥ فأيما أولى بالتقدمة: المستعير، أم المستعار منه؟)) ١/ ٥٥
موضع الكيف (النخبة)	((قال صاحب أبي تمام: إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه؛ لدقة معانيه، وقصور علمه عنه، وفهمته العلماء وأهل النفاذ في علم الشعر، وإذا عرفت هذه الطبقة فضله لم يضره طعن من طعن بعدها عليه)) ١/ ١٩
القيم (العلم)	((قال صاحب أبي تمام: إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه؛ لدقة معانيه، وقصور علمه عنه، وفهمته العلماء وأهل النفاذ في علم الشعر، وإذا عرفت هذه الطبقة فضله لم يضره طعن من طعن بعدها عليه)) ١/ ١٩
القيم (الاخلاق) الحسد والبغض والتعصب	((قال صاحب أبي تمام: أما احتجاجكم بدعبل فغير مقبول ولا معول عليه؛ لأن دعبلاً كان يشنأ أبا تمام ويحسده، وذلك مشهور معلوم منه؛ فلا يقبل قول شاعر في شاعر)). ١/ ٢٢
القيم (الاخلاق) الظلم والتعصب	((وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه؛ لغرابة مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول: لا أدري؛ فيعدل إلى الطعن عليه ... وإذا كان ابن الأعرابي ـ مع علمه وتقدمه ـ قد حمل نفسه على هذا الظلم القبيح والتعصب الظاهر، فما تنكرون أن تكون حال سائر من ذكرتموه أيضا كحاله)) ١/ ٢٢

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

قيم (العلم) والهرمية في ترتيب القيم	((قال صاحب أبي تمام: فقد أقررتم لأبي تمام بالعلم بالشعر والرواية، ولا محالة أن العلم في شعره أظهر منه في شعر البحتري، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم)) ١/ ٢٥
قيم (الاخلاق) الاعتراف	((قال صاحب أبي تمام:... فلسنا ندفع، أن يكون صاحبنا قد أوهم في بعض شعره، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه. وغير منكر لفكر نتج من المحاسن مثل ما نتج، وولّد من البدائع مثل ما ولّد أن يلحقه الكلال في الأوقات، والزلل في الأحيان...)) ١/ ٣٧
قيم (الاخلاق) المسامحة	((بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهره، ويتجاوز له عن زلله، فما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام سليم من الطعن، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب)) ١/ ٣٧
قيم (الاخلاق) العدل	((فلم يكن أحد من متقدم ولا متأخر في خطئه و لا سهوه ولا غلطه بمجهول الحق، ولا مجحود الفضل بل عفى عندكم إحسانه على إساءته، وغطى تجويده على تقصيره، فكيف خصصتم أبا تمام دون غيره بالطعن، وعبتموه دون من سواه بالزلل والوهم ؟ ولم يك في ذلك بدعة، ولا به منفردا، ولا إليه سابقا؛ وبخستموه حق الإحسان الذي انتشر في الآفاق، وسارت به الركبان. وتمثّل به المتمثّل وتأدب بحفظه وإنشاده المتأدب، مما إن ذكرناه لم تنكروه، وأقررتم بفضيلته، وأجمعتم معنا على استجادته، واستحسانه)) ١/ ٥١-٥٢
قيم (الاخلاق)الظلم والتعصب	((فهل الظلم المستقبح والتعصب المستبشع إلا ما أنتم مرتكبوه وخابطون فيه؟))١/ ٥٢
قيم (الاخلاق) الصدق	((قال صاحب أبي تمام: فيم تدفعون قول البحتري يرثي أبا تمام ودعبلاً ويذم من بقي بعدهما من الشعراء ... فمحال أن يرثي البحتري أبا تمام ويذكر من بعده من الشعراء بأن قرائحهم مضطربة ومعانيهم مستحيلة وعنده أن أبا تمام تلك صفته...٠)) ١/ ٥٢-٥٣
قيم (الاخلاق) الانصاف وعدم الان	((... فلم تنكرون فضل من يعترف البحترى بفضله، ويشهد في الشعر له به، وتنسبون العيب إليه وهو ينفيه عنه، وتلحقونه به وهو يبرئه منه ؟!)).١/ ٥٣

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

ضمن التوجه الأدبي فلسفياً، احتفى أبو تمام وصاحبه بمواضع الكيف، وهي تؤكد حسبما يعتقد (برلمان) على ((سموّ الأمور الفريدة والنادرة والإستثنائية والعابرة والصعبة...إنها مواضع ترجح النخبة بدلاً من الجماهير، والإستثنائي بدلاً من المعتاد))٢٥. ومن هنا جاء تأكيد صاحب أبي تمام في خطاب المناظرة على تفرد أبي تمام في رؤيته الشعرية الواعية: ((فأبو تمام انفرد مذهب اخترعه، وصار فيه أولا وإماماُ متبوعاً، وشُهر به حتى قيل: مذهب أبي تمام، وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه، واقتفوا أثره. وهذه فضيلة عَرِىَ عن مثلها البحتري))٢٦، وقد ارتكز هذا التفرد على جمهور خاص من النخبة يحتفي بالخطاب الشعري القائم على التعمق في المعاني الفلسفية والتدقيق فيها، قال صاحب أبي تمام: ((فقد عرّفناكم أن أبا تمام أتي في شعره بمعان فلسفية، وألفاظ عربية، فإذا سمع بعض شعره الأعرابي لم يفهمه، وإذا فسِّر له فهمه واستحسنه))٢٧. هذا الاهتمام بـــ(الكيف) سلط الضوء على طبيعة رؤية أبي تمام وصاحبه، ومراهنته على استقطاب النخبة، وهذا ما يتضح من قولته المشهورة: لِمَ لا تفهمان ما يقال ؟ اجابة لمن سأله: لم لا تقول ما يفهم؟٢٨ وفي مواضع عديدة من المناظرة جادل صاحب أبي تمام عن هذه الفكرة كما في قوله: ((إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه؛ لدقة معانيه، وقصور علمه عنه، وفهمته العلماء وأهل النفاذ في علم الشعر، وإذا عرفت هذه الطبقة فضله لم يضره طعن من طعن بعدها عليه))٢٩.

احتفى صاحب أبي تمام بقيم العلم، وعدّها ميزة توجب عند المقارنة افضلية الشاعر على غيره فقد ((قال صاحب أبي تمام: فقد أقررتم لأبي تمام بالعلم بالشعر والرواية، ولا محالة أن العلم في شعره أظهر منه في شعر البحتري، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم))٣٠. تمثّل تأثير الحداثة (العلم والفلسفة) من جهة، والمظاهر الحضارية الوافدة إلى الحياة الاجتماعية للعرب من جهة أُخرى في تحولات الشعرية العربية من حيث اللغة (اللغة الفلسفية)، والمضمون (المعاني العقلية)، والوظيفة (رؤية العالَم). فلم يُعدّ الشعر انعكاساً لغوياً للماضي، أو انطباعات تحاكي الشعور والأحاسيس المرتجلة بل ((أصبح له دوره المعرفي في توجيه الحاضر والكشف عن جوانبه))٣١ كما يقول جابر عصفور، ثم يضيف قائلاً: ((إن تاكيد القيمة المعرفية

للشعر... يقود إلى تأكيد أن "الشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم"، وصفه العالم هنا تشير إلى الفكر باعتباره خاصية متميزة لشاعر يتأمل الأشياء، ويفيد في تأملها من الفلسفة، مما يمنحه قدرة أكبر على اكتشاف معطيات عالمه وإدراك علاقاتها المتشابكة...))٣٢.

وكما احتفى صاحب أبي تمام بقيم العلم كذلك احتفى بقيم الاخلاق، وهو ما يعكس شخصيته الدينية: ((قال صاحب أبي تمام: لئن أسرفتم في الذم، وبالغتم على صاحبنا في الطعن، وتجاوزتم الحدَّ الذي يقف عنده المحتج المناظر، إلى مذهب المتسقط المغالط، والمتعب المتحامل ــ فلسنا ندفع، أن يكون صاحبنا قد أوهم في بعض شعره، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه. وغير منكر لفكر نتج من المحاسن مثل ما نتج، وولَّد من البدائع مثل ما ولَّد أن يلحقه الكلال في الأوقات، والزلل في الأحيان، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهره[سهوه]، ويتجاوز له ... فما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام سليم من الطعن، ولا مِن أخذ الرواة عليه الغلط والعيب))٣٣. و((...لم يكن أحد من متقدمٍ ولا متأخر في خطئه ولا سهوه ولا غلطه بمجهول الحق، ولا مجحود الفضل بل عفى عندكم إحسانه على إساءته، وغطى تجوىده على تقصيره، فكيف خصصتم أبا تمام دون غيره بالطعن، وعبتموه دون من سواه بالزلل والوهم ؟ ولم يك في ذلك بدعة، ولا به منفرداً، ولا إليه سابقاً؛ وبخستموه حق الإحسان الذي انتشر في الآفاق، وسارت به الركبان. وتمثل به المتمثل وتأدب بحفظه وإنشاده المتأدب، مما إن ذكرناه لم تنكروه، وأقررتم بفضيلته، وأجمعتم معنا على استجادته، واستحسانه فهل الظلم المستقبح والتعصب المستبشع إلا ما أنتم مرتكبوه وخابطون فيه؟))٣٤. فصاحب أبي تمام يعترف بالخطأ والتوهم المتوقع من أبي تمام: (فلسنا ندفع، أن يكون صاحبنا قد أوهم في بعض شعره، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه. وغير منكر لفكر نتج من المحاسن مثل ما نتج، وولَّد من البدائع مثل ما ولَّد أن يلحقه الكلال في الأوقات، والزلل في الأحيان)، ولكنه في الوقت نفسه يرفض الإسراف والمبالغة في النقد الذي تحول إلى طعن وتسقيط ومغالطة: (لئن أسرفتم في الذم، وبالغتم على صاحبنا في الطعن، وتجاوزتم الحدَّ الذي يقف عنده المحتج المناظر، إلى مذهب المتسقط

المغالط، والمتعب المتحامل). ويدعو بدوره إلى قيم الإحسان والمسامحة وعدم إنكار الفضل والحق: (بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهره [سهوه]، ويتجاوز له ...) و(لم يكن أحد من متقدم ولا متأخر في خطئه و لا سهوه ولا غلطه بمجهول الحق، ولا مجحود الفضل بل عفى عندكم إحسانه على إساءته، وغطى تجوىده على تقصيره).

عكستْ قيم العلم والاخلاق في حجاج خطاب المناظرة مدى تغلغل الآيديولوجية الإسلامية في الساحة الأدبية. وكشفت عن ميل واضح لتوظيف الجانب الفلسفي والمنطقي لتلك القيم في بعدها الحجاجي، إذ ((دخلت الفلسفة في كل علم وفن والزم بعض النقّاد النقد الادبي معايير فلسفية وقيدوه بها. ولم ينجُ الشعر من تسرب الاراء الفلسفية اليه))٣٥. فقد امتلك نمط التفكير الفلسفي / القيمي عند أبي تمام وصاحبه قدرة معرفية على تأسيس نهضة نقدية واعية، وتحولات ثقافية وثورية في المجتمع. (برلمان) يصوغ هذه الفكرة العامة – الربط بين القيم والنّهضة – في عبارة واحدة ((ترتبط القيم المجردة التي يسهل إستخدامها في النقد بتبرير التغيير والروح الثورية))٣٦.

مع التغييرات الاجتماعية التي طالت المجتمع المسلم في القرون الأربعة الأولى من الهجرة، أصبح المجتمع العربي مجتمعاً هجيناً من شعوب متنوعة دخلت الإسلام، أو التي أُجبرت على العيش فيه ممن امتزجوا بالمجتمع مع بقائهم على ديانتهم السابقة. شكّلت تلك الشعوب نواة لثقافات فرعية في المجتمع إذ أن ((الثقافات الفرعية لا تشير إلى الجماعات الإثنية واللغوية في المجتمع الواسع فحسب، بل يمكن أن تدل على شرائح سكانية تميّزها أنماطها الثقافية عن بقية المجتمع...وتلعب الثقافة دوراً مهماً في الحفاظ على القيم والمعايير في المجتمع، غير أنها تفسح المجال كذلك للإبتكار والتغيير. إن الثقافات الفرعية والثقافات المضادة التي ترفض القيم والمعايير السائدة في المجتمع قد شجع ظهور الآراء والإتجاهات التي تطرح بدائل للثقافة المهيمنة. والحركات الاجتماعية والجماعات التي تشترك في المواقف أو في أسلوب الحياة تمل قوة فاعلة مؤثرة دافعة للتغيير في المجتمعات. وعلى هذا الأساس، فإن الثقافات الفرعية تتيح للناس الحرية للتعبير عن

آرائهم والسعي إلى تحقيق ما يحملونه من تطلعات ومعتقدات))٣٧. من هنا ندرك بصورة واضحة العلة الرئيسة للهجوم الثقافي على أبي تمام وأنصاره، إذ كانوا يشكّلون تهديداً ثقافياً – من وجهة نظر صاحب البحتري ومن وجهة نظر (الآمدي) أيضاً – لتماسك المجتمع وقيمه الثابتة، اهمية القيم الثابتة تكمن في كونها وسيلة فعّالة من وسائل الهيمنة، فالسلطة بمختلف تجلياتها تتخذ الوحدة المجتمعية، والقيم المعتادة، وسيلة من وسائل الحفاظ على الإمتيازات السياسية والإقتصادية، وترسيخ الطبقية واللامساواة الاجتماعية.

ثانياً: المواضع والقيم في حجاج صاحب البحتري

نستعرض في هذه الفقرة من البحث الجدول الذي يتضمن المواضع والقيم عند صاحب البحتري، قبل أن نعمد إلى تحليلها بصورة تفصيلية وكما يلي:

الجدول (٠٢): المواضع والقيم في حجاج صاحب البحتري

المواضع والقيم	الاقتباس
قيم (الافضلية)	((والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر... ومن لا يسقط ولايسفسف أفضل ممن يسقط ويسفسف)). ١/ ١١
مواضع الكم (العدد)	((حتى وقع الإجماع على استحسان شعره واستجادته، وروى شعره واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم؛ فمن نفق على الناس جميعا أولى بالفضل، وأحق بالتقدمة)) ١/ ١٩
مواضع الكم (العدد)	((شتان ماهما من حضريّ تشبه بأهل البدو فلم ينفق في البادية ولا عند أكثر الحاضرة، وبدويّ تحضّر فنفق في البدو والحضر)) ١/ ٢٧
قيم (الأفضلية)	((أن لصاحبكم إحسانا وإساءة،وأن الإحسان للبحتري دون الإساءة، ومن أحسن ولم يسئ أفضل ممن أحسن وأساء)). ١/ ٢٧

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

موضع الكم (العدد)	((قال صاحب البحتري: أما أخذ السهو والغلط. على من أخذ عليه من المتقدمين والمتأخرين في البيت الواحد والبيتين والثلاثة، وربما سلم الشاعر المكثر من ذلك ألبتة، وتعرى منه حتى لا تؤخذ عليه لفظة، وأبو تمام لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مخطئاً، أو محيلا، أو عن الغرض عادلا، أو مستعيرا استعارة قبيحة، أو مفسدا للمعنى الذي يقصده بطلب الطباق والتجنيس، أو مبهما له بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم. ولا يوجد له مخرج، مما لو عددناه لما أتى عليه الإحصاء كثرة فكيف يكون ما أخذ على الشعراء من الوهم وقليل الغلط عذرا لمن لا تحصى معايبه ومواقع الخطإ في شعره ؟)) ١/ ٥٢
موضع الكم (العدد)	((قال صاحب البحتري: إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً لأنه يأتي في تضاعيف الردىء الساقط، فيجيء رائعاً لشدة مباينته مايليه فيظهر فضله بالإضافة...والمطبوع الذي هو مستوى الشعر قليل السقط. لا يبين جيده من سائر شعره بينونة شديدة، ومن أجل ذلك صار جيد. شعر أبي تمام معلومة وعدده محصورا)) ١/ ٥٤
قيم (الاخلاق) الاعتراف	((قال صاحب البحتري: إلا أنا ـ مع هذا ـ لاننكر، أن يكون قد استعار بعض معانى أبي تمام؛ لقرب البلدين، وكثرة ما كان يطرق سمع البحتري من شعر أبي تمام يعلق شيئا من معانيه، معتمداً للأخذ أو غير معتمد)) ١/ ٨
قيم (الاخلاق) الانصاف	((قال صاحب البحتري: ما نعينا على أبي تمام اللحن ـ وهو في شعره أكثر وأشنع ـ فتنعوا مثله على البحتري؛ لأن اللحن لايكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين، ولا سلم منه شاعر من شعراء الإسلاميين، وقد جاء في أشعار المتقدمين ما علمتم من الإقواء وغير الإقواء مما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة)) ١/ ٢٩
قيم (الاخلاق) الانصاف والاعتراف	((قال صاحب البحتري ... أما ادعاؤكم كثرة الأخذ منه فقد قلنا: إنه غير منكر أن يكون أخذ منه لكثرة ما كان يرد على سمع البحتري من شعر أبي تمام فيعتلق معناه: قاصدا للأخذ، أو غير قاصد)) ١/ ٥٥

قيم (الاخلاق) المجاملة	((قال صاحب البحتري: ولم لا يفعل البحتري ذلك وقد كان هو وأبو تمام بعد اجتماعهما وتعارفهما متصافيين على القرب والبعد، وتحابّين متلائمين على الدنو والشّحط، يجمعها النسب والطلب والمكتسب، ولم يكن أيضا في زمانهما شاعر مشهور يفد على الملوك ويجتدى بالشعر وينتسب إلى طي سواهما، فليس بمنكر أن يشهد أحدهما بالفضل لصاحبه، ويصفه بأحسن ما فيه، وينحله ما ليس له، وخاصة في الشعر؛ ولا سيما تأبين الميت، فإن العادة جرت بأن يعطى من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه حياً)) ١/ ٥٣-٥٤
موضع (الأوليّة)	ليس الأمر في اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتم ولا هو بأول فيه، ولا سابق إليه، بل سلك في ذلك سبيل مسلم، ابن الوليد، واحتذى حذوه، وأفرط وأسرف وزال عن النهج المعروف، والسَّنن المألوف، وعلى أن مسلمة أيضا غير مبدع لهذا المذهب، ولا هو أول فيه، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع ـ وهي: الاستعارة، والطباق، والتجنيس ـ منثورة متفرقة في أشعار المتقدمين، فقصدها، وأكثر في شعره منها، وهي في كتاب الله عزّ وجلّ موجودة)) ١ /١٣-١٤
موضع (الموجود)	((قال صاحب البحتري: ... شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ أو الإحالة، بل العيب والنقص في ذلك يلحقان أبا تمام؛ إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها أبن الأعرابي وأمثاله)) ١/ ٢٣

في المجتمعات المحافظة تمتلك المواضع المتعلقة بالعدد والمألوف والواقع سلطة اجتماعية وآيديولوجية مهيمنة على المقولات الثقافية الأُخرى، ولا يخفى ارتباط الواقع والمألوف بمواضع الكم، كما يرتبطان (المألوف والعدد) بطريقة العرب في الشعر والنثر، ولهذا يميل المحافظون (وكما هو حال صاحب البحتري) إلى الإعلاء من شأن الاجماع والاستفاضة والشهرة (وهي مفاهيم مرتبطة بالجانب الكمي والمألوف والواقع)؛

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

ويكَثر فيها الاهتمام بالظاهر والمحسوس، ومن هنا كان صاحب البحتري كثيراً ما يتخذ الاجماع حجة في خطاب المناظرة: ((حتى وقع الاجماع على استحسان شعره واستجادته، وروى شعره واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم؛ فمن نفق على الناس جميعاً أولى بالفضل، وأحقُّ بالتقدمة))٣٨.

وإلى جانب هذه الاهتمام بالمواضع المهتمة بالكم والعدد، يحتفي صاحب البحتري بـــ(مواضع الموجود) التي تمجد الواقع والمعيش والراهن لما لهما من اهمية في الحفاظ على التقاليد الادبية في الخطاب الشعري عند العرب: ((قال صاحب البحتري: لا يلزم أبن الأعرابي من الظلم والتعصب ما ادعيتم، ولا يلحقه نقص في قصور فهمه عن معانى شعر. شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطر أو الإحالة، بل العيب والنقص في ذلك يلحقان أبا تمام؛ إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها أبن الأعرابي وأمثاله)٣٩. فالعدول عن الواقع والمعيش والمألوف يُعدّ من موارد العيب والنقص التي تلحق ابا تمام بحسب تصورات (الآمدي) وصاحب البحتري.

اما القيم فقد صُنّفتْ – كما سلف – إلى قيم مجردة وقيم محسوسة. وتبيّن أن القيم المحسوسة – كما يرى (برلمان) – خصيصة من خصائص المجتمعات المحافظة٤٠. ربما يقودنا هذا إلى تفسير حرص صاحب البحتري على ربط القيم بمواضع الكم المحسوسة غالباً، وحرصه في جميع ذلك على الإستشهاد بأهل العلم بالشعر والرواة الذين تبنوا المقولات السائدة في المجتمع العربي المحافظ، أمثال أبن الاعرابي وأبن المعتز وغيرهما. إن اقتران القيم بالمحسوسات كما هو الحاصل من اقترانها بالنخب الرمزية، قد يسهم بدرجة معتد بها في ثبات المعتقدات التقليدية المشتركة بين افراد المجتمع، ومن ثمّ استقرار المجتمع وتحصينه ثقافياً ضد التيارات الثقافية الفرعية الوافدة، والهيمنة على الطبقات الاجتماعية المهمّشة واستمرار السلطة عليها. من جهة أُخرى أن الاشتغال على الظاهر والمحسوس من القيم والمواضع، يمنح الباحث إجابة عن سؤال جوهري، لماذا أوّلى اصحاب البحتري الشكل وصياغته أهمية خاصة دون المضامين ؟ (إذ أتت المضامين والمعاني في مرتبة ثانية). يجيب (أدونيس) في كتابه (الثابت والمتغير) عن هذا السؤال بأن ((المضمون الذي

أقره الإسلام ودعا للتعبير عنه، يتمثل في حقائق واضحة أوجبت وبلغت. وهذه الحقائق كاملة، ثابتة، نهائية. وهي تتضمن كل شيء))٤١. كما ((أن هذه الحقائق ثابتة فإن التعبير عنها يجب أن يكون ثابتاً. فالتغير في التعبير عن الحقيقة يفصح عن شك فيها. إن تغيير طرائق التعبير يعني، من هذه الناحية، تغييراً للفكرة ذاتها، وهو لذلك فساد وانحطاط. ومن هنا ضرورة المحافظة على قواعد التعبير، من أجل المحافظة على الفكرة ذاتها. فأن يغيّر الشاعر يعني أنه يشوه الثابت. وكل تشويه شرّ أو مرادف للشر))٤٢.

وعلى الرغم من هذا الإختلاف الحاصل بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري –كما تبيّن سابقاً –، لم يمنع ذلك من ظهور قيم مشتركة بينهما، فكلاهما يستعمل النص بصفته جزءاً متجذراً في الحجاج، فهما يمثلان بيئة تُعلي من ثقافية النص وأن كانت عند صاحب البحتري أشد سطوة وأكثر استعمالاً، وكلاهما يستعملان القيم الكلّية والمجادلة العقلية (وأن كانت عند صاحب أبي تمام تشكل ظاهرة بارزة). بخلاف صاحب البحتري الذي استعملها بشكل عرضي وسريع.

يتبيّن من خلال الجدول (02) جدال صاحب البحتري عن أولويّته في تشيكل العالم، على وفق رؤية مغايرة، تستند إلى الإلفة والوضوح في التعامل مع الظواهر، فقد كان البحتري ((يتعمد حذف الغريب والوحشي من شعره ليقربه على فهم من يمدحه...ويرى أن ذلك أنفق، فَنَفَقَ، وبلغ المراد والغرض))٤٣. رؤية البحتري هذه، رؤية برغماتية نفعية تميل إلى أقرب الطرق وأسهلها في سبيل الوصول إلى الغاية والهدف، وتستند أيضاً إلى التقليد والإلتزام بـــ((النهج المعروف والسنن المالوفة))٤٤، و ((حصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة))٤٥. بالنتيجة أن إيمان البحتري وصاحبه ((بنموذج شعري قبلي، لا يمثل اقصى درجات النقاء اللغوي فحسب، بل يمثل نموذجاً لعالم مألوف لا تضطرب عناصره أو مكوناته، ولا تتعقد أساليبه أو طرائق صياغته))٤٦. يمكن القول إن قوة الاتجاه الآخر – البحتري وصاحبه – بما لديه من سلطة وهيمنة مادية ومعنوية؛ قلّلت كثيراً من امكانية انتشار طريقة أبي تمام الشعرية ورؤيته الفلسفية للحياة، وبقي تياراً كامناً في المجتمع يتحيّن فرص الظهور.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٥ – آب لسنة ٢٠٢٠

هذه المجادلة بين رؤيتي صاحب أبي تمام وصاحب البحتري تتضح احصائياً من خلال المقارنة بين المواضع والقيم عند طرفي المناظرة عبر ماقاما به من حجاج ، الجدول (٠٣) يحصي – في مقارنة للمواضع والقيم في حجاج صاحب أبي تمام وصاحب البحتري – المواضع والقيم التي وردت في الجدولين السابقين (٠١) و(٠٢)، إذ يتضح انفراد صاحب أبي تمام بمواضع الرتبة والكيف وقيم العلم، وانفراد صاحب البحتري بقيم الافضلية، ويشتركان في مواضع الكم وقيم الاخلاق (مع تفاوت عددي في استعمالها وتوظيفها إذ يتفوق صاحب البحتري في مواضع الكم وصاحب أبي تمام في مواضع القيم الاخلاقية)، مع ملاحظة مهمة: إذا اعتبرنا أن الاجماع والاستفاضة والشهرة ضمن مواضع الكم، يكون هناك تفاوت كبير – لصالح صاحب البحتري – في هذا الجانب.

الجدول (٠٣): مقارنة المواضع والقيم في حجاج صاحب أبي تمام وصاحب البحتري

الموضع والقيمة	صاحب ابي تمام	العدد	صاحب البحتري	العدد
الأوليّة	↑	3		
الكيف (التفرد)	↑	2		
الكيف (النخبة)	↑	2		
الكم (العدد)	↑	2	↑	4
القيم (العلم)	↑	2		
القيم (الاخلاق)	↑	8	↑	4
القيم (الأفضلية)			↑	2

الخاتمة ونتائج البحث

بعد هذه القراءة الموجزة لخطاب المناظرة في موازنة الآمدي يمكن استخلاص بعض النتائج وكما يلي: اثبت البحث ارتباط القيم المحسوسة ومواضع الكم بالثقافات التقليدية السائدة والمحافظة وارتباط القيم المجردة والمواضع التي تعتمد على الكيف بالثقافات الفرعية المعارضة والثورية. كما أن البحث، بيّن بالشرح والتوضيح أثر السياق الثقافي والممارسات الاجتماعية في خطاب المناظرة من خلال استعراض وتحليل القيم والمواضع في الحجاج بصفتها آيديولوجيات مضمرة، وهذا راجع في جانب منه إلى الطابع الحواري الثنائي للمناظرة، فالخطاب في المناظرة هو (خطاب مواجهات) يتبادل فيه المشاركون الدورين: منتج النص ومفسّره، وكذلك يتحدد المخاطَب في (خطاب الواجهات) بشكل واقعي ويتشخص خارجاً. هذان الأمران أوجبا اختلاف الأساليب الدلالية واللفظية المؤسسة لبنى الخطاب؛ فطبيعة المخاطَب ونوعية قناة التواصل بين المتخاطبين تعدّان من العوامل المؤثرة في اختيار استراتيجيات الخطاب. كما وضّح البحث أيضاً مدى تغلغل الآيديولوجية الإسلامية في الساحة الأدبية كما هو الحال مع قيم العلم والاخلاق في حجاج خطاب المناظرة. وكشف عن ميل واضح لتوظيف الجانب الفلسفي والمنطقي لتلك القيم في بعدها الحجاجي.

---

١ يُقصد بالذاكرة الخطابية هنا :((مجموعة من المعارف التي يتقاسمها المتحاورون في تواصلهم اليومي)) بلاغة الحجاج ، الدكتور محمد مشبال ، ص١٥٢.

٢ الخطاب والتغير الاجتماعي ، نورمان فيركلف ، ص١١٣

٣ م . ن ، ص٤٤

٤ ينظر: الحجاج في التواصل ، فيليب بروطون ، ص٩١.

٥ ينظر: م . ن ، ص٩٤.

٦ ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة ، د.عبداللطيف عادل، ص ٨٨ .

٧ ينظر: الحجاج اطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة ، لبرلمان وتيتيكان ، عبدالله صولة ، ضمن كتاب اهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من ارسطو الى اليوم ، ص٣١٠.

٨ ينظر: م . ن ، ص٣١٠.

7 ينظر: الحجاج في التواصل ، ص٩٢.

8 الصراع على تفسير الحرب والسلم ، دراسات في منطق التحقيق العلمي في العلاقات الدولية ، قوجيلي ، ص٤٢.

١ ينظر: الحجاج اطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة ، لبرلمان وتيتيكان ، م ، ص٣١١.

١ ينظر: م . ن ، ص٩٣.

١ م . ن ، ص٣١١.

١ م . ن ، ص٣١١.

١ نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، د.الحسين بنو هاشم ، ص٤٧–ص٤٨.

١ الحجاج اطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة ، لبرلمان وتيتيكان ، ص٣١٢.

١ نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، ص٤٨–٤٩.

١ العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، د.عزّ الدين النّاجح ، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع ، ص٨٥.

١ نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، ص٤٨.

٢ م . ن ، ص٤٨–٤٩.

٢ ينظر: العوامل الحجاجية ، عز الدين الناجح ، ص٨٣.

٢ ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، ص٤٩.

٢ م . ن ، ص١٥٦.

٢ ينظر: الحجاج اطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة ، لبرلمان وتيتيكان ، ص٣١١.

٢ نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، د.الحسين بنو هاشم ، ص٤٨

٢ الموازنة ، الآمدي ، ١ /١٣.

٢ م . ن ، ١ /٢٧.

٢ ينظر: م . ن ، ١/ ٢١.

٢ م . ن ، ١ /١٩.

٣ م . ن ، ١ /٢٥.

٣ قراءة التراث النقدي ، د جابر عصفور ، ص١٣٠.

٣ م . ن ، ص١٣٠

٣ الموازنة ، ١ /٣٧.

٣ م . ن ، ١ /٥١–٥٢.

٣ ابو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة بين الطائيين ، محمد علي ابو حميدة ، اطروحة دكتوراه ، ص٢.

٣ الحجاج في التواصل ، ص٩٤.

٣ علم الاجتماع ، انطوني غدنز ، ص٨٥–٨٦ .

٣ الموازنة ، الآمدي ، ١/ ١٩.

٣ م . ن ، ١/ ٢٣.

٤ ينظر: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، ص٤٦.

٤ الثابت والمتحول ، ادونيس ، ص١٩٩.

٤ م . ن ، ص٢٠٢.

٤ الموازنة ، الآمدي ، ١/ ٢٦.
٤ م . ن ، ١/ ١٤.
٤ م . ن ، ١/ ١٨.
٤ قراءة التراث النقدي ، ص ١٢٣.

المصـادر والمراجع

الكتب:

أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، اشراف حمّادي صمّود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الاداب منوبة، تونس، ب.ت.

بلاغة الإقناع في المناظرة، د.عبداللطيف عادل، منشورات ضفاف، لبنان، ودار رأمان، الرابط ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٣.

الثابت والمتحول بحث في الابداع والاتباع عند العرب ، ادونيس، ط٦، دار الساقي، لبنان، بيروت، ١٩٩٤.

الحجاج في التواصل، فيليب بروطون، ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣.

الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلف، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، طبع بالهيئة العامة لسئون المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠١٥.

الصراع على تفسير الحرب والسلم، دراسات في منطق التحقيق العلمي في العلاقات الدولية، قوجيلي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٨.

علم الاجتماع، انطوني غِدِنز، بمساعدة كارين بيردسال ، ترجمة وتقديم فائز الصُيّاغ، ط٤،المنظمة العربية للترجمة لبنان، بيروت، مؤسسة ترجمان، لبنان، بيروت، ٢٠٠٥.

العوامل الحجاجية في اللغة العربية، د.عزّ الدين النّاجح، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، المطبعة دار نهى، تونس ٢٠١١.

قراءة التراث النقدي، جابر عصفور، مؤسة عيبال للدراسات والنشر، ١٩٩١.

الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري، ابي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق احمد صقر، ط٦، دار المعارف القاهرة،٢٠١٧.

نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، د.الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، بيروت،٢٠١٤.

الرسائل والأطاريح:

ابو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة بين الطائيين، محمد علي ابو حميدة، اطروحة دكتوراه، دائرة اللغة العربية في الجامعة الامريكية في بيروت، ايلول ١٩٦٨.